إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلۡمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡصِلُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ﴿١٨﴾

التفسير: أي أن الذين يؤمنون بالتوحيد أيضًا يتبوءون درجات متفاوتة. فالمسلمون على درجة في التوحيد، ولليهود درجة، وللصابئين درجة، وللمسيحيين درجة – علمًا أن المسيحيين كانوا موحدين في أول أمرهم – وللمجوس درجة في التوحيد، وللمشركين درجة فيه. علمًا أنه كان بين المشركين أيضًا أناس آمنوا بالتوحيد؛ فمثلاً كان بين رؤساء مكة شخص اسمه زيد، حيث كان يؤمن بوحدانية الله تعالى (السيرة النبوية لابن هشام، مجلد ١: ذكرُ ورقة بن نوفل وزيد بن عمرو بن نُفيل). فالله تعالى يعلن هنا أنه سيفصل يوم الفصل الأخير بين جميع الطوائف التي تدّعي بالتوحيد.. أي أن الصادقين منهم في دعواهم سيصبحون غالبين، وأن الكاذبين منهم سيُجعَلون مغلوبين بحسب درجة كذبهم. وبالفعل قد أصبح المسلمون غالبين يوم الفصل، أما المشركون، الذين كان بينهم موحدون قليلون جدًّا، قد دُمّروا كلية. أما اليهود والنصارى والصابئون والمجوس فنالوا العقاب بقدر ضعفهم وتقصيرهم. مما شكل دليلاً على أن الإسلام هو الحق.

يستنتج البعض من هذه الآية خطأً أن الإسلام قد اعتبر اليهودية والمسيحية والصابئية ديانات صادقة. والحق أن النظر إلى الفحوى الحقيقي لهذه الآية يكشف لنا أنها تذكر معيارًا لمعرفة الصادق، فمن ثبت صدقه بحسب هذا المعيار فهو الصادق، لا أن كل هذه الطوائف صادقة.

أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿١٩﴾

التفسير: أي أن في السماء والأرض قانونًا يستحيل أن يتحرر منه أي شخص. خذوا مثلاً اللسان الذي خلقه الله لنا، فالإنسان حرٌّ في استخدامه لدرجة أن بإمكانه أن يسبّ به الله تعالى إذا شاء، ولكن من جهة أخرى لو أن جميع ملوك العالم ووزراءهم وعلماءهم وفقهاءهم طلبوا من اللسان بكل رجاء أن يذوق الحلو مرًّا، والمر حلوًا، لما قدر على ذلك. كلا، بل سيذوق الحلو حلوًا، والمر مرًّا. ولو أننا رأينا في هذا القانون الخاص باللسان تغيرًا في بعض الأحيان، لوجدناه أيضًا خاضعًا لقانون إلهي آخر. فمثلاً، لو كان المرء مصابًا بمرض في كبده لذاق لسانه الحلو مرًّا. وبالمثل يمكن أن يجد لسانه، بسبب بعض الأمراض الأخرى، في الطعام العادي ملوحة شديدة، أو لا يجد في الطعام الحلو أي حلاوة، أو يجد في الشيء الذي لا مرارة فيه على الإطلاق مرارة شديدة. ولكن الواقع أن هذا التغير في اللسان أيضًا خاضع لبعض القوانين الإلهية الأخرى. وإلا فالأشياء التي لا خيار للإنسان فيها لا يقدر على تغييرها إطلاقًا. وعلى سبيل المثال، لو حاولتَ إدخال إصبعك في ثقب إبرة لن تقدر على ذلك ولو كنت من القادة الكبار أو الولاة أو الملوك العظام. أو مثلاً لا تقدر على أن تحوّل صوت أحد أقاربك إلى صوت شخص آخر وإن أردت ذلك. أو مثلاً لو وُلد عند شخصٍ طفل دميم وأراد أن يجعله جميلاً فلن يستطيع ذلك أبدًا؛ أو لو وُلد عنده طفل قصير فليس بيده أي وسيلة لأن يجعله طويلاً. أو خذوا مثلاً هذه العين التي خلقها الله تعالى للرؤية، فإنها

لن ترى الأحمر إلا أحمر، ولا الأصفر إلا أصفر، ويستحيل أن ترى الأحمر أصفر، أو الأصفر أحمر، وإن أراد صاحبها ذلك.

وهذا يعني أن ثمة قانونًا إلهيًّا لا يمكن لأحد الخروج عليه. وبالمثل إن الشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب كلها تعمل بحسب قانون إلهي خاص، وكل منها يقوم بواجبه الذي أُنيط به. فالله تعالى يقول هنا كيف تتخذون هذه الأشياء آلهة. إنها بنفسها واقفة أمام الله تعالى كالخدم المسخرين، ومع ذلك قد بلغ بكم الغباء درجة أنكم تقفون أمامها كالسائلين، معرّضين أنفسكم للذل والهوان.

لقد أشار الله تعالى هنا إلى هذا النظام الجاري في الكون، مبينًا أن التدبر سيكشف لكم بكل وضوح أن الكون كله خاضع لقانون الطبيعة.. أي لله تعالى، وأن كثيرًا من الناس أيضًا خاضعون لقانون الطبيعة.

علمًا أن قوله تعالى ﴿... وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيهِ الْعَذَابُ﴾ لا يعني أن بعض الناس متحررون من قانون الطبيعة، بل يعني أن بعضهم يحاولون خرق قانون الطبيعة أيضًا، كأن يأكل المرء إلى حد التخمة، فيحل العذاب بأكثرهم، مما يدل على أن قانون الطبيعة غير مبدل، وأنه من المحال أن ينال أحد العزة بخرق قوانين الله تعالى، بل إن مشيئته ﷻ هي الغالبة في آخر المطاف.

هَـٰذَانِ خَصۡمَانِ ٱخۡتَصَمُواْ فِي رَبِّهِمۡۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قُطِّعَتۡ لَهُمۡ ثِيَابٞ مِّن نَّارٖ يُصَبُّ مِن فَوۡقِ رُءُوسِهِمُ ٱلۡحَمِيمُ ﴿٢٠﴾ يُصۡهَرُ بِهِۦ مَا فِي بُطُونِهِمۡ وَٱلۡجُلُودُ ﴿٢١﴾ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنۡ حَدِيدٖ ﴿٢٢﴾ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا مِنۡ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ ﴿٢٣﴾

شرح الكلمات:

يُصهَر: صهَر الشيءَ: أذابَه (الأقرب).

مَقامِعُ: جمعُ مقمَعة. والمِقمعة: العمود من حديد، وقيل كالمِحْجَن يُضرَب به رأسُ الفيل؛ خشبةٌ يُضرب بها الإنسانُ على رأسه ليُذَلّ ويُهان (الأقرب).

التفسير: أي أن هذين الفريقين، أي الذين يتبعون قانون الطبيعة والذين يريدون التحرر منه، يختصمان حول ربهم، وستكشف النتائج أيهما على الحق وأيهما على الباطل. فالذين يخالفون قانون الطبيعة يرون الفشل والخسران دائمًا ولا يزالون يصلَون نارًا روحانية على الدوام. يُصَبّ على رؤوسهم ماء حميم يحرق حتى ما في بطونهم.. بمعنى أن الأفكار الهمجية تغزو عقولهم مؤكدةً سوء باطنهم. إن هؤلاء سينالون عقابًا شديدًا، ولن يكون عقابًا باطنيًّا فحسب بل يكون خارجيًّا كذلك.. فيلقون عقابًا باطنيًا على شكل أفكار مزعجة تنتابهم وتدمر سلامهم الباطني، كما ينالون عقابًا خارجيًّا يقضي على سلامهم الخارجي أيضًا. وكلما حاولوا النجاة من العذاب غاصوا فيه أكثر فأكثر، ذلك لأن أساس عذابهم هو الأفكار الفاسدة المتولدة في عقولهم. والواضح أنه ليس لهم أي سيطرة على الأفكار، وبالتالي يستمر عقابهم الباطني والخارجي معًا، لأن العقاب الداخلي يتسبب في العقاب الخارجي.

تتحدث هذه الآية عن العذاب بنوعيه الروحاني والمادي، حيث بين الله تعالى أن أجسادهم ستصلى في النار، كما أن قلوبهم أيضًا ستحترق بنار داخلية لن يجدوا منها مناصًا.

إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَلُؤۡلُؤٗاۖ وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٞ ﴿٢٤﴾

التفسير: ليس المراد من هذه الآية أنهم سيُلبَسون هناك الذهب المادي. إن الذهب المادي حقير لدرجة أن المؤمن يرميه بعيدًا في هذه الدنيا أيضًا، فكيف يمكن أن يسُرّه في الآخرة. فالحق أن هذا مجاز، والأساور إشارة إلى أسباب الزينة، وكونها من الذهب إشارة إلى أن أسباب الزينة تلك لن تفنى أبدًا، لأن الذهب لا يصاب بالصدأ. والمراد من اللؤلؤ أن تلك الأسباب ستضفي على طبائعهم لمعانًا ورفقًا شأن اللؤلؤ الذي يكون لامعًا ناعم الملمس.

أما قوله تعالى ﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ فبين فيه أنهم لن يتكبدوا أي مشقة ولا عناء في سبيل التقوى التي تتيسر لهم في الآخرة. لقد أوضح الله تعالى في القرآن الكريم أن التقوى تشبه اللباس، قال تعالى ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ﴾ (الأعراف: ٢٧). ولكن التحلي بالتقوى في الدنيا يتطلب من المرء جهدًا جهيدًا وعناء كبيرًا، بينما يخبر الله تعالى هنا أن التقوى في الآخرة ستشبه الحرير.. أي أن التحلي بالتقوى لن يكلف المرء أي عناء، بل سيجد فيها راحة، وسيميل طبعه إليها تلقائيًا، دون أن يُكرَه عليها.

وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٢٥﴾

التفسير: هنا بين الله تعالى أن لباس أهل الجنة لن يكون جميلاً فحسب، بل إن لسانهم أيضًا سيكون طيبًا، كما أن سلوكهم أيضًا سيكون مرضيًّا، حتى إن الله تعالى نفسه سيحمدهم، كما أن جيرانهم سيثنون عليهم.

لقد تبين من ذلك أن الجنة ليست مكانًا للبطالة، بل هي مكان للعمل. والفرق الوحيد أن المرء في هذه الدنيا يقع في الإثم أيضًا، أما في الآخرة فلن يصدر عنه أي سوء، بل سيكون مصونًا من كل زوال روحاني.

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ ٱلَّذِي جَعَلۡنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلۡعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلۡبَادِۚ وَمَن يُرِدۡ فِيهِ بِإِلۡحَادِۭ بِظُلۡمٖ نُّذِقۡهُ مِنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ﴿٢٥﴾

شرح الكلمات:

يصُدّون: صدَّ عنه: أعرضَ عنه ومالَ. صدَّ فلانًا عن كذا: منَعه ودفَعه وصرَفه عنه (الأقرب).

العاكفُ: المقيمُ. (الأقرب)

الباد: المقيم بالبادية (المفردات).

إلحاد: ألحدَ عن دين الله: مالَ وحادَ وعدَل. وفي القرآن ﴿وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ﴾ أي يُرِدْ عدولاً عن الحق (الأقرب).

التفسير: أي أن الذين يقطعون صلتهم عن كعبة الله ويمنعون الناس من الوصول إليها، لن يقدروا على إقامة المساواة بين الناس في الدنيا، كما أنهم سيلقون العذاب في الآخرة.

اعلم أن قوله تعالى ﴿سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ﴾ إشارة إلى المساواة التي راعاها الإسلام لدى تأسيس الكعبة المشرفة، حيث بين الله تعالى أن هذا المسجد لم يؤسَّس لشخص خاص، بل هو للناس أجمعين. ولا فرق فيه بين فقير وغني أو شرقي وغربي. إن أبوابه مفتوحة لكل إنسان، سواء الذي يعبد الله تعالى فيه مقيمًا أو الذي هو يسكن في البوادي والبراري.

ورد في التاريخ أن وفدًا من المسيحيين جاؤوا النبيَّ ﷺ للنقاش الديني، وبينهم قسيسون كبار. ودار الحديث في المسجد وطال. ويبدو أن هذا الحوار تم في يوم الأحد يوم العبادة عند المسيحيين. فلما حانت صلاتهم قال أحد القسيسين للنبي ﷺ: لقد حان وقت صلاتنا، فاسمح لنا أن نخرج لأداء صلاتنا. فقال ﷺ: لا داعي

لأن تخرجوا من المسجد، إذ يمكنكم القيام بعبادتكم في مسجدنا إذ لم يُبنَ إلا لعبادة الله تعالى. فأدّوا صلاتهم وفق طريقتهم في المسجد النبوي (تفسير الطبري وزاد المعاد الجزء الثالث ص ٣٥).

إن هذا الحدث التاريخي يؤكد أن باب المسجد مفتوح عند الإسلام لشرفاء كل دين وملة لكي يقوموا بعبادتهم حسب طريقتهم.

ثم توطيدًا للمساواة لم يشترط الإسلام لإمام الصلاة بأن يكون من عائلة معنية أو من قوم معينين. بينما يؤم النصارى في عبادتهم قسيس معين، ولا يمكن أن يؤمهم شخص غيره. وبالمثل لا يمكن أن يقرأ على السيخ كتابهم "غرنث" إلا باندت معين. ولكن الإسلام لا يجعل الإمامة حكرًا على القسيسين والباندات والمشايخ، بل إنه يعتبر كل إنسان صالح ممثلاً لله تعالى، ويعطي كل شخص صالح حق الإمامة.

ثم إن الفقير والغني كليهما يقفان في المسجد جنبًا إلى جنب في صف واحد. فيقف القاضي والمجرم معًا، والقائد والجندي معًا، ولا يحق لأحد أن يجبر غيره على ترك مكانه في المسجد. أما في كنائس الإنجليز فيكتبون على المقاعد بأن هذا المقعد مخصص لفلان من كبراء القوم، وذلك محتجز لفلان من العائلة الفلانية. ولكن هذا التمييز لا يوجد عند المسلمين لأن الإسلام قد أعطى الجميع حقًّا متساويًا في المسجد.

لما زرت البلاد العربية رأيت في ناحية من مسجد حجرةً حولها سياج. فسألت بعض القوم عن تلك المقصورة، فعلمتُ أن الملوك في الماضي حين كانوا يحضرون المسجد كانوا يصلون في تلك الحجرة. وذلك لأن أحدًا من الملوك حضر المسجد ذات مرة، فجلس بجنبه أحد الكناسين، فحاول حاشية الملك إبعاده عنه، فثار المسلمون والقضاة وقالوا إن المسجد لله، ولا تمييز فيه بين الكبير والصغير، ويجوز حتى لشخص يعمل كنّاسًا حتى لو كان أسلم في نفس ذلك اليوم، أن يقف في المسجد بجنب أي إنسان ويصلي معه ولو كان هذا من كبراء القوم وحتى لو كان

ملكًا. فلم يقدر أحد على إبعاد ذلك الكناس من مكانه. فأمر الملك ببناء حجرة خاصة به في جنب المسجد.

فلما سمعتُ هذه القصة قلت في نفسي لقد نـــزع الله تعالى من ذلك الملك التوفيق لأداء الصلاة في المسجد بسبب انتهاكه حكمًا من أحكام الإسلام. ذلك لأن المكان الذي بُنيت فيه تلك المقصورة لم يكن جزءًا من المسجد.

قصارى القول، إن الإسلام لم يجعل بين الكبير والصغير في المساجد أي تمييز، وهكذا قد أقام بين بني آدم مساواة لا نظير لها.

وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾

شرح الكلمات:

بَوَّأْنا: بَوَّأَ لـــه منـــزلاً: هيّأه ومكَّنَ لـــه فيه (الأقرب).

فقوله تعالى ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيتِ﴾ يعني أننا هيّأنا لإبراهيم مكانًا في الكعبة.

التفسير: يخبر الله تعالى هنا أنه قد بدأنا ببناء هذا البيت منذ عصر إبراهيم وعلى أساس مبدأ بأن المنتمين إلى هذا البيت لن يشركوا بالله تعالى وأنهم سيطهرون هذا البيت للمسافرين والمقيمين حوله والراكعين والساجدين.

هذه الآيات توضح أن التضحية التي طالب بها اللهُ إبراهيمَ والتي تركَ بحسبها ابنه إسماعيل في وادٍ غير ذي زرع، إنما كان يهدف أساسًا إلى أن يتولى إسماعيل حماية بيت الله عندما يكبر ويخدم الدين الإبراهيمي، وأن يخرج منه أولاد أراد الله تعالى أن يقيم على أيديهم الدور الأخير من دينه. فالأمر الواقع أن اليوم الذي تُرك فيه إسماعيل عند بيت الله كان بمنـــزلة إعلان عن بعثة محمد رسول الله ﷺ. إذ كان من المقدر أن يكون بيت الله تعالى آخر بيت لذكر الله تعالى في زمن الرسول ﷺ،

وقد بدأ التحضير لذلك منذ عصر إسماعيل عليه السلام. والحق أن الأعمال العظيمة إنما يبدأ الاستعداد لها قبل أوانها بكثير. ولما كان ظهور النبي ﷺ مقدرًا من مكة فأخذ الله تعالى يمهد لذلك قبل ألفي عام من خلال إسماعيل ﷺ. فما أعظمَه ﷺ مكانةً ورفعة حيث أمر الله تعالى إبراهيمَ وإسماعيل – عليهما السلام – قبل ألفي عام بأن يطهرا بيته إذ قد اقترب ظهور نبيه الذي ستشرق الأرض كلها بنوره. فقال الله تعالى ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾.. أي جهِّزْ بيتي هذا للذين سيحضرون للطواف والإقامة هنا، والذين سيركعون ويسجدون.

بيد أنه ينبغي أن نرى كم من الناس كانوا يحضرون البيت بهذه النية في زمن إسماعيل وبعده؟ لا جرم أن الناس كانوا يأتون هناك للطواف، ولكن السؤال الذي يفرض نفسه هنا هو: كم منهم كانوا يذهبون هناك ناذرين حياتهم كلها لخدمة دين الله تعالى. إن التاريخ قبل عصر الرسول ﷺ لمئات السنين محفوظ، وهذا التاريخ يخبرنا أنه لم يكن ببيت الله عندئذ إلا الشرك والوثنية. لم يوجد هنالك من معتكف ولا مقيم ولا راكع ولا ساجد لله تعالى. بل إن الذين أرادوا أن يرفعوا اسم الله تعالى هنالك كانوا يتعرضون للضرب والإهانة. فالحق أن قوله تعالى لإبراهيم أن طهِّرْ بيتي ليأتي هنا الطائفون والعاكفون والركع السجود إنما كان تحقيقه مقدرًا في عصر النبي ﷺ، وقد بعث الله تعالى إسماعيل ليمهد لذلك.

أما السؤال: ما هو الإنجاز الذي قام به إسماعيل إذن، فجوابه أنه قام بتعمير الكعبة تعميرًا ظاهرًا، وبواسطته فجر الله تعالى عين زمزم. ولا لوم على إسماعيل عليه السلام بسبب المفاسد والمساوئ التي تسربت إلى أهل مكة فيما بعد. لا شك أن الذين تركهم إسماعيل خلفه قد صار معظمهم فيما بعد مشركين يعبدون الأصنام، ولكن هل يمكن لأحد في العالم أن ينكر أن هؤلاء هم الذين كانوا مؤهلين حقًّا لنشر الدين الحنيف. لا جرم أن أهل مكة صاروا من المعارضين للإسلام، ولا شك أن قريشًا خالفت النبي ﷺ بكل شدة، بل يمكن لأحد أن يقدم أبا جهل كمثال ويقول كيف يصح أن يكون نبأ ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ خاصًّا بالقوم الذين خرج منهم أبو جهل. ولكني أقول لهذا المعترض،

أيها الجهول، إنك استطعت أن ترى أبا جهل الذي قد انتهى عمله، ولكنك لَمْ تقدر على رؤية أبي بكر الذي إنجازاته خالدة حتى اليوم. لقد رأيت عتبة وشيبة اللذين جاءا ثم طواهما الفناء، ولكنك لم تر عمر وعثمان وعليًا الذين قد وُهبوا الحياة الخالدة والذين لن تنمحي إنجازاتهم إلى يوم القيامة؟ إذًا، مما لا شك فيه أن الذين جاءوا بعد إسماعيل قد أصابهم الفساد، ولكن فسادهم هذا يماثل الغبار المتراكم على المعطف أو على الجوهرة التي لم يتم صقلها بعد. إن هذه الأحجار الكريمة لما صُقلتْ ببركة تربية النبي ﷺ وقوته القدسية صارت أغلى متاع في العالم. فلمع أبو جهل في شخص عكرمة، والعاص ووائل في صورة عمرو، وأبو سفيان في صورة معاوية ويزيد بن أبي سفيان. إن ذرات الذهب لا قيمة لها ولا قدر ما دامت مدفونة في التراب، ولكن عندما يبصر الشخص الخبير تلك الذرات الذهبية يفصلها عن التراب، فتباع بأغلى الأثمان. وإن الجوهرة ما دامت حجرًا لا يعرف أحد بقيمتها، ولكن حينما يقوم الجوهري الخبير بصقلها وتقديمها في صورتها الحقيقية أمام العالم فيبلغ ثمنها مئات الآلاف بل الملايين.

إذًا، فلا شك أن هؤلاء قد تسربت إليهم المساوئ والمفاسد، إلا أن محمدًا رسول الله ﷺ لما قام بتصفيتهم خرج منهم أبو بكر وعمر وعثمان وعلي رضوان الله عليهم أجمعين. بل لقد وُلد آلاف غيرهم مثل طلحة والزبير وعبد الرحمن بن عوف وأبي عبيدة وسعد وسعيد وعثمان بن مظعون. أولئك قوم ضحوا بأغلى أمانيهم ومشاعرهم في سبيل إعلاء اسم الله تعالى، حتى صار كل واحد منهم إبراهيم حيًّا. لا جرم أن النبي ﷺ كان من أولاد إبراهيم عليه السلام، بيد أنه مما لا شك فيه أيضًا أنه كان أبا إبراهيم أيضًا حيث خرج من أولاده ﷺ الروحانيين ببركة قوته القدسية عشرات الآلاف الذين كانوا كإبراهيم والذين أحيوا الأسوة الإبراهيمية من جديد في الدنيا.

قصارى القول، إن بعث إسماعيل في مكة من عند الله تعالى إنما كان استعدادًا وتمهيدًا لمجيء النبي ﷺ. لقد أمره الله تعالى أن طهِّرْ بيتي لأن حبيبي ورسولي الذي هو آخر رسول ذي شرع سيظهر عن قريب. فعليك أن تجهز لمقدم حبيبي من

الآن، وأن تخلف من الآن وراءك أولادًا يخرج منهم من ينصرون حبيبي كأمثال أبي بكر وعمر وعثمان وعلي وطلحة والزبير وحمزة والعباس، وأن تقدّم إليه هدية مئات أمثالهم من الصحابة العظام. هذا هو المراد من قوله تعالى ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾، وإلا فلو أخذناه بالمعنى الظاهري فإن أهل مكة لم يقدموا بعد إسماعيل عليه السلام مثالاً جيدًا من الناحية الدينية. نعم، لما كان تحقُّق هذه النبوءة مقدرًا في عهد الرسول ﷺ فإن الله تعالى قد جاء بإسماعيل إلى مكة ليُعدّ ذريةً تقوم بخدمة دين محمد رسول الله ﷺ ولتنذر نفسها في سبيل إظهار جلال الله تعالى.

بيد أنه لما كانت مساجد العالم كلها بيوت الله تعالى حيث إنها مخصوصة لذكر الله ولأنه تعالى يعتبرها بمنزلة أظلال لبيت الله، فإن هذه الأحكام لا تخص بيت الله فقط، بل تنطبق أيضًا على كل مسجد على سبيل الظِّلّية والتبعية.

ولو تدبرنا هذه الآية من هذا المنظور لوجدناها تذكر ثلاثة أغراض هامة للمساجد وهي:

الأول: تبنى المساجد لينتفع منها المسافرون.

الثاني: تبنى المساجد لينتفع منها أهل المدن.

الثالث: تبنى المساجد لينتفع منها الركّعُ السجودُ.. أي الذين ينذرون حياتهم لابتغاء مرضاة الله تعالى والذين هم على التوحيد الكامل قائمون.

يمكن للمسافر أن ينتفع من المسجد من حيث إنه إذا لم يجد أي مسكن آخر فبإمكانه المبيت في المسجد لبضعة أيام متجنبًا معاناة عدم وجود مأوى يبيت فيه. أما المقيم فيمكنه الانتفاع من المسجد من حيث إن المسجد مكان محفوظ من الضجيج والشغب، فيمكنه أن يعكف على ذكر الله تعالى ومناجاته ودعائه في هدوء تام في المسجد. أما الذين ينذرون حياتهم لخدمة دين الله فإن المسجد هو مكانهم الحقيقي، لأن المساجد مجمع المؤمنين ومكان الدعاء وذكر الله تعالى، ومن المحال لمن يحب الله تعالى حقًّا وهو على صلة متينة معه ﷻ أن ينفصل عن مثل هذا المكان.

ولا يغيبن عن البال أن كل الأعمال التي فيها مصلحة عامة هي أيضًا بمثابة ذكر الله تعالى، سواء فيها ما يتعلق بالقضاء أو حسم الخلافات ومحاربة الفتن أو التعليم وما إلى ذلك مما هو ذو صلة برقي المسلمين أو انحطاطهم. ولو نظرنا إلى عصر الرسول ﷺ لوجدنا أن الخصومات كانت تحسم في المساجد، وكان القضاء والتعليم يتمّان فيها؛ ما يعني أن المساجد ليست لذكر الله تعالى باللسان فحسب، بل لا بأس من القيام بالأمور التي هي ذات صلة بالضرورات العامة. ذلك لأن ذكر الله في الإسلام لا يعني أن يردد المرء "سبحان الله، سبحان الله" فحسب، بل إن خدمة الأرامل أيضًا من الدين، وتربية الأيتام أيضًا من الدين، وفضّ الخلافات والإصلاح بين الناس أيضًا من الدين. فكل الأعمال التي فيها منفعة عامة والتي تنهض بالأمة خُلقيًّا وماديًّا تندرج تحت ذكر الله تعالى، وأداؤها في المساجد جائز. فكلما جاء الرسول ﷺ ضيف أعلن بين صحابته في المسجد: من منكم يستضيف هذا في بيته (البخاري: كتاب المناقب، باب ويؤثرون على أنفسهم). فالأمر كان يتعلق في الظاهر بقِرى الضيف وطعامه فحسب، ولكنه الدين بعينه إذ يحقق ضرورة دينية. لقد أخطأ الناسُ فضيّقوا مفهوم الدين جدًّا، مع أن الدين إنما نـــزل ليوصل الإنسان بالله تعالى، ولا ينعم الله تعالى على العبد بالوصال إلا إذا قام بخدمة الخلق. إنما يتيسر وصاله تعالى برعاية اليتامى وخدمة الأرامل وتبليغ الدعوة للكافر وتفريج الكربة عن المؤمن. فالقيام بهذه الأمور في المسجد ليس من الدنيا في شيء، وإنما هو من الدين في الحقيقة.

إلا أنه لا يجوز الحديث في المسجد عن الأمور الشخصية البحتة، كأن يقول الواحد لصاحبه مثلاً: ما الذي قررتَ بصدد زواج ابنتك؟ أو يقول مثلاً: هناك نـــزاع حول ترقيتي لأن المسؤولين لا يرضون بذلك. إن الحديث عن مثل هذه الأمور لا يجوز في المساجد. غير أن الإمام مستثنى من ذلك إذ تقع عليه مسؤولية القوم كلهم، ومن حقه أن يتحدث مع القوم عن هذه الأمور إذا ارتأى ذلك.

قصارى القول، لا يجوز الحديث في المسجد عن الأمور الشخصية البحتة. وعلى سبيل المثال قال الرسول ﷺ: إذا فقد أحد شيئًا فلا يعلن عنه في المسجد* (مسلم: كتاب المساجد، باب النهي عن نشد الضالة في المسجد). فالمساجد إنما هي لذكر الله فحسب، ولكن ذكر الله تعالى يشمل جميع الأمور التي تنهض بالإنسان سياسيًّا وعلميًّا وقوميًّا. أما الأمور التي تتعلق بالخصومات والفساد ومخالفة القانون فلا يجوز الحديث عنها في المساجد وإنْ سمّيتَها قومية أو سياسية أو دينية. كما أن الحديث في المساجد حول الأمور الشخصية البحتة ممنوع، لأن الإسلام يعتبر المسجد بيت الله تعالى وقد خصّه لذكره تعالى.

وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٨﴾ لِّيَشْهَدُواْ مَنَـٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِيٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَـٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَـٰمِ ۖ فَكُلُواْ مِنْهَا وَأَطْعِمُواْ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ﴿٢٩﴾ ثُمَّ لْيَقْضُواْ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُواْ نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُواْ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٣٠﴾

شرح الكلمات:

رجالاً: جمعُ راجلٍ وهو من ليس لـــه ظهرٌ يركَبه (الأقرب).

ضامِر: الضامر: القليل اللحمِ الدقيقُ. يقال: جَمَلٌ ضامِرٌ وناقةٌ ضامر وضامِرة (الأقرب).

* نص الحديث: "قال رسول الله ﷺ: مَن سمِع رجلاً ينشُد ضالّةً في المسجد فلْيَقُلْ: لا رَدَّها اللهُ عليك. فإن المساجد لم تُبْنَ لهذا". (مسلم، كتاب المساجد، رقم الحديث ٨٨٠) *(المترجم)*

فَجّ: الفَجّ: الطريق الواسع الواضح بين جبلين (الأقرب).

تَفَث: التفَثُ: الوسَخ (الأقرب).

التفسير: أي أننا قلنا لإبراهيم أن هذا الأمر ليس خاصًّا بك، بل إنه للناس أجمعين، فقد أمرناهم بأن يأتوا هنا من أماكن نائية على نوق قد أصبحت ضامرة من طول السفر وتركت أثرها في الطريق بكثرة أسفارها وسرعة سيرها، ذلك لكي يجلبوا هنا منافع مادية، ويذكروا اسم الله تعالى في أيام معلومة، وهكذا يقوم في العالم كله دين واحد. ثم قال تعالى وليأكل الأغنياء منكم لحوم أضاحيهم ويطعموا الفقراء أيضًا. وبعد أن ينتهوا من تقديم الأضاحي عليهم أن يغتسلوا ليزول وسخهم.. أي عليهم أن يهتموا بالنظافة الجسدية، كما عليهم بالطهارة الروحانية بتطهير قلوبهم. وليُوفُوا عهودهم مع الله تعالى، وليطّوّفوا بالبيت القديم.

ويجب ألا يفهم من الطواف أن الإسلام قد رفع بيتًا هو مجرد جماد ميت إلى مرتبة الله تعالى. كلا، بل الطواف عادة قديمة ترمز إلى الفداء والتضحية. فكان المرء يطوف حول المريض تعبيرًا عن أنه يقدم نفسه فديةً عنه لينجو من الموت.

(Encyclopedia of Religion and Ethics v. 3 p. 657)

وهذا ما تقصده هذه الآية حيث قال الله تعالى إنه ينبغي أن يوجد في العالم أناس ينذرون حياتهم في سبيل تعظيم هذا البيت وإقامة عبادة الله تعالى. وإلا فليس الطواف الظاهري في حد ذاته بذي أهمية.

لقد تحدث الله تعالى في هذه الآيات عن حج بيته، وهو عبادة هامة في الإسلام. فيجتمع كل سنة في مكة المكرمة مئات الآلاف من الناس من مختلف الشعوب والأقطار. لا يعرف بعضهم تقاليد الآخر ولا عاداتهم ولا لغاتهم، ولكنهم يعترفون عَمليًّا أن التوحيد الإسلامي قد وحّد قلوب المسلمين لدرجة أنهم مستعدون للاجتماع في مكان واحد تلبية لنداء الله تعالى، رغم اختلاف ألسنتهم ومذاهبهم وألوانهم وأعراقهم وأفكارهم ومناخهم. كما أنهم، علاوة على قيامهم بالحج في الظاهر، يثبتون عَمليًّا أنهم جاهزون لفداء أرواحهم في سبيل حماية الكعبة المشرفة. وما دام المسلمون متحلّين بهذه الروح لن يقدر العدو أن ينظر إلى الكعبة بنية شريرة

أو على تشتيت شملهم. ذلك لأن شمل المسلمين باق ما بقيت الكعبة. إنهم لا يرون كيف أن الله تعالى نشر الإسلام في مختلف بقاع العالم فحسب، بل يرون أيضًا أن نداء صعد من واد غير ذي زرع، فلم يلبّه أهله بل آذوا صاحبه بشتى أنواع الأذى والاضطهاد، ومع ذلك خرج ذلك النداء إلى شتى أكناف العالم، وجمع اليوم مئات الآلاف من البشر. إنهم يرون هذه الآية الإلهية العظيمة ويشعرون بنضرة وحلاوة جديدة في إيمانهم. يقولون في أنفسهم انظروا هنا وُلد محمد رسول الله ﷺ الذي رفع صوتًا لم يزل يدوي في العالم حتى بلغ البلاد القاصية ووصل إلى الملايين. وها هي مكة – التي اضطهد أهلها المسلمين واضطروهم لترك أوطانهم ولم يسمحوا لهم في هذه الأرض أن يقولوا "لا إله إلا الله" يردد كل فرد فيها: "الله أكبر، الله أكبر، لا إله إلا الله، الله أكبر ولله الحمد"، ويقول: لبيك اللهم لبيك، لا شريك لك لبيك". وكأن هؤلاء يرون الله تعالى ماثلاً أمامهم، فيقولون لـــه: نحن حاضرون يا رب، ونقر بأنه لا شريك لك. أنت وحدك حريٌّ بأن تنادي عبادك، وها قد حضرنا في جنابك ملبين نداءك.

إذًا، فمكة المكرمة هي ذلك المقام الذي يجتمع فيه كل سنة مئات الآلاف من المسلمين وليس غرضهم إلا أن يعبدوا الله ويشهدوا أمام العالم أن الدين الذي قد أتى به محمد رسول الله ﷺ حيٌّ اليوم أيضًا، وأنه لا يزال في الدنيا اليوم أيضًا خدام لـــه ﷺ ليرفعوا نداءه عاليًا. إذًا، فكأن الحج رسالة موجهة إلى العالم بأنه لا يزال دم الحياة يجري في عروق أهل الإسلام، ولا يزال عشاق محمد ﷺ مجتمعين في مركز الإسلام معْربين عن صلتهم المتينة بالإسلام وبمحمد رسول الله ﷺ. إنهم يشهدون أمام العالم أنهم وإن كانوا ضعفاء، إلا أن الدنيا لا تخلو من الذين يحبون محمدًا رسول الله ﷺ، وأن المسلمين لا يزالون ينبضون بالحياة كأمة واحدة. وهذا هو السبب الذي من أجله قد جعل الإسلام الحج من الفرائض كالصلاة والصوم والزكاة. لا شك أن الهدف الروحاني الأساسي من الحج إنما هو أن يصبح الإنسان لله تعالى بصدق القلب نابذًا كل أنواع الصلات الأخرى، إلا أن الله تعالى قد فرض الحجّ الظاهري ليساعد على تحقيق هذا الهدف أيضًا، ففرض على كل ذي مقدرة

أن يترك أهله وداره ويحضر مكة، ليتعلم درس التضحية بالوطن والأهل والأقارب. ذلك لأن الإسلام يسلّم بأهمية الروح والجسد كليهما. فكما أن لكل إنسان جسدًا ماديًّا وتكون الروح في ذلك الجسد، كذلك فإن للدين والروحانية أيضًا جسدًا لا بد من الحفاظ عليه. وعلى سبيل المثال، قد جعل الإسلام لأداء الصلاة حركات معينة، مع أن الغرض الأساسي من الصلاة أن يتولد في قلب المرء حب الله تعالى، وأن يفكر في صفاته تعالى فيسعى إلى صياغة حياته على ضوء صفاته تعالى. ولكنا لا نرى في بادي النظر أي علاقة بين هذا الهدف وهذه الحركات الظاهرة في الصلاة، والحق أن أي روح لا يمكن أن تعيش بدون جسم، ولذلك لما فرض الله تعالى علينا الصلاة أمرنا أيضًا بأداء حركات محددة. والواقع أن الأديان التي لم تدرك هذه الحقيقة و لم تأمر أتباعها بالقيام بحركات معينة خلال العبادة، غفل أهلها عن العبادة أصلاً بالتدريج، وإذا كانت لا تزال عندهم صلاة فلا تعدو أن تكون تمثيلية هزلية فحسب. كذلك فإن الحج الحقيقي إنما هو أن يصير الإنسان لله تعالى فقط قاطعًا كل علاقاته الأخرى. ولذلك لو رأى المرء في المنام أنه قام بالحج فتأويله أنه سيظفر ببُغيته (تعطير الأنام: الحج). ومن الواضح أن أكبر غاية من خلق الإنسان هي عبادة الله والظفر بقربه ﷻ بدليل قوله تعالى ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾(الذاريات:٥٧).. أي إنما خلقتُ الإنسان لأجعله مقربًا لدي. فحج المرء علامة على أنه قد نال الهدف الذي من أجله خُلق، وبتعبير آخر إن الحج هو رؤية الله تعالى. بيد أن الله تعالى قد جعل لهذا الحج قالبًا ظاهريًا أيضًا حفاظًا على روح الحج.

ثم إن الحج إحياء لذكرى ذلك الحادث الذي جرى قبل أربعة آلاف عام، والذي أبدى فيه إبراهيم ﷺ أسوة رائعة للوفاء الصادق لا تزال الدنيا ترى نتائجها حتى اليوم. قبل أربعة آلاف عام من اليوم وُلد في بيت مشرك بأرضِ "أُور" طفلٌ (التكوين ١١: ٢٨). وتربّى بين ظهراني قوم ما كان شغلهم الشاغل إلا الإشراك بالله تعالى وعبادة الأصنام ليلاً ونهارًا. ولكن هذا الطفل وُلد بقلب عامر بالنور، فكان منذ طفولته ينظر إلى الأوثان باحتقار وكراهية. فلما نظر الله تعالى إلى ضلال عباده

المتزايد وغيّهم المتفاقم وأراد أن يصطفي أحدًا منهم لنفسه وقعت عينه تعالى، التي لا تخطئ أبدًا في معرفة أهل الكفاءات، على إبراهيم من قرية الكلدانيين، فمسحه بفضله، وقال اذهبْ يا إبراهيم وضَحِّ بابنك، لأزرع به مشتلاً للصلاح والورع، وأفجّر ينبوع الطهر والصفاء تحت رعايتي وحمايتي الخاصة، وفي معزل عن الآخرين. فقال إبراهيم: سمعًا وطاعة، فها أنا جاهز تمامًا. فأخذ ابنه الذي كان قد رُزقه في شيخوخته، وتركه في واد غير ذي زرع لم يوجد فيه أثر للماء ولا الطعام بحسب القرآن الكريم (سورة إبراهيم: ٣٨). ولم يترك إبراهيم ابنه مع أمه في ذلك القفر المخيف إلا لإعلاء ذكر الله تعالى وإقامة عظمته في الدنيا من جديد. لقد أُعطيَ ذلك الولدُ وأُمُّه من الزاد سقاء ماءٍ وجراب تمرٍ، وكان القرار الإلهي بشأنهما أن يقضيا باقي حياتهما في تلك البرية. قال إبراهيم في نفسه إلى متى سيعيش الولد وأمه على قربة ماء وكيس تمر؟ لن يكون عند زوجتي وابني بعد أيام إلا ذرات الرمال اللامعة تحت الشمس المحرقة. فرقَّ قلبه واغرورقت عيناه بالدموع. فلما رأت زوجته هاجرُ – رضي الله عنها – الدموع في عينيه والاهتزاز بشفتيه أدركت أن الأمر أكثر مما ترى؟ فأخذت تمشي وراء إبراهيم وتقول: أين تتركنا يا إبراهيم؟ لا يوجد هنا ماء للشرب ولا طعام للأكل! أراد إبراهيم أن يجيبها ولكنه لم يستطع الكلام لغلبة الرقة. فسألته هاجر: أَالله أمرك بأن تتركنا هنا أم تتركنا برغبتك؟ فما كان من إبراهيم إلا أن رفع يديه إلى السماء ليخبرها أنه قد فعل ما فعل بناء على أمر الله تعالى. فهاجرُ التي كان قلبها عامرًا بالإيمان واليقين، والتي كانت لا تزال في سن الشباب، والتي لم يكن عندها إلا ابن واحد وقد صار عرضة للموت المحقق، توقفت عن الجري وراء إبراهيم وقالت: إذًا، لن يضيّعنا الله تعالى.

وبعد أيام نفذ الماء والغذاء، ورغم أن هاجر لم تر في تلك المنطقة أي إنسان إلا أنها لم تقدر على رؤية ابنها وهو يتلوى ويضطرب من شدة العطش، فصعدت إحدى التلال علّها ترى إنسانًا فتطلب منه الماء، أو تجد أثرًا لقرية، ولكنها لم تجد أي أثر للماء على مدى البصر. فهبطت من التلّة في فزع وأخذت تعدو إلى تلة أخرى وصعدتها. فنظرت إلى ما حولها، ولم تر أي أثر للماء. وجرت هاجر في شدة

كربها واضطرابها بين التلتين سبع مرات. فخافت على ولدها خوفًا شديدًا وقالت في نفسها ماذا سيحدث الآن؟ وبينما هي في تلك الأفكار حتى فاجأها وحي الله تعالى يقول: يا هاجر، لقد هيأ الله لولدك الماء، فارجعي إليه وانظري. فرجعت فإذا ينبوع ماء ينفجر بجنب الولد الذي كان يتلوى من غلبة العطش. هذا هو النبع الذي يدعى زمزم. وزمزم معناه في الواقع نشيد يُتغنى به عند الفرحة⊙. ويبدو أن هاجر هي التي سمت ذلك النبع زمزم لأنه أتاح لها الفرصة للتغني بحمد الله تعالى شكرًا على نجاة ابنها من الهلاك. وهكذا هيأ الله تعالى لهما الماء.

وفيما هي تفكر من أين تجد الطعام الآن إذ وصلت عند هاجر قافلة ضلت طريقها. وكان هؤلاء بحاجة ماسة إلى الماء، فلما رأوا النبع قالوا لهاجر: هل تأذنين لنا أن ننـــزل عندك وسنعيش كالرعايا لك؟ فأذنت لهم، فعاشوا هنالك كالرعايا لهاجر وإسماعيل. وهكذا صار إسماعيل ملكًا قبل أن يبلغ سن الشباب. (البخاري: كتاب بدء الخلق)

وإحياءً لذكرى ما جرى مع هاجر، يقوم كل حاج حتى اليوم بالسعي بالصفا والمروة سبع مرات. هذا السعي هو بمنـــزلة إقرار من الساعي بأنه سيتبع خطوات هاجر. هذا السعي إعلان من الحجاج بأنه لو اقتضى الأمر فسنترك أقاربنا بلا تردد ابتغاء مرضاة الله تعالى.

فالحج عبادة ذات أهمية قصوى في الإسلام. عندما يزور المرء مكة المشرفة مؤديًا مناسك الحج كما ينبغي، تتراءى لـــه هذه المشاهد كلها، فيرى بعينيه كيف يُكتب الخلود الأبدي للذين يضحّون في سبيل الله تعالى.

ثم إن الحج يخلق في المسلمين روح المركزية والوحدة، ويتيح لهم الفرصة لإعمال الفكر في حاجاتهم وحاجات باقي العالم. كما يجدون هناك فرصة لرؤية محاسن الآخرين والتحلي بها، ويزدادون أُخوّة ومحبة.

⊙ ورد في لسان العرب: فرسٌ مزمزم في صوته: إذا كان يُطرِّب فيه. *(المترجم)*

خلاصة القول إن الحج ركن هام من أركان الإسلام، وقد نبه الله تعالى إليه هنا. فالذين قد أعطاهم الله سعة من المال ووهبهم صحة تتحمل صعوبات السفر، فمن واجبهم العمل بهذا الأمر الرباني وأن يستمتعوا ببركات الحج إلى بيت الله تعالى. وعندي أن الحج هو أكبر حسنة للأغنياء في هذا العصر، لأن معظمهم لا يذهبون للحج رغم كثرة المال والثروة. أما الذين يحجّون فأكثرهم من الذين لا حج عليهم. فعندما أديتُ فريضة الحج جاءني أحد الحجاج وسألني بعض المال. فقال لـــه جدي المرحوم* الذي كان يرافقني: لماذا جئتَ للحج وليس معك زاد؟ قال: كان عندي مال كثير ولكنني أنفقته كله. فقال لـــه جدي: كم كان عندك؟ قال: عندما خرجتُ من بومباي كان عندي خمس وثلاثون روبية، فرأيت أن الحج فرضٌ عليّ. فكان هذا الشخص يرى أن خمسًا وثلاثين روبية مبلغ كبير يوجب عليه الحج. بينما يوجد بين المسلمين من يملكون خمسة وثلاثين ألفًا بل مئات الآلاف من الروبيات ومع ذلك لا يذهبون للحج. فإنك ترى بين الفقراء حجاجًا كثيرين، وتجد الواحد منهم يوفر المال قرشًا قرشًا طوال عمره، وعندما تجتمع عنده مئة روبية مثلاً يخرج للحج بهذا المال القليل الذي وفّره طيلة حياته؛ مع أن هذا المال هو كل ما ستعيش عليه زوجته وأولاده. فلو أنه اشترى به زوجًا من الثيران القوية لأعمال الزراعة أو قطعةً من الأرض لعاشت زوجته وأولاده في سهولة ويسر. ولكنه لا يبالي بذلك، بل يأخذ كل ما عنده من المال قاصدًا الحج. إذًا، فالحج أكبر حسنة للأثرياء، لأنهم أشد تقصيرًا في أداء هذه الفريضة.

ثم هناك كثير من الموظفين الذين يقولون سنذهب للحج بعد التقاعد. ولا يفكر هؤلاء أنه ليس هناك أي ضمان للحياة بعد التقاعد. فقد رأينا مرارًا أن بعض الناس يمرضون بعد التقاعد حتى لا يقدرون على الخروج للحج. ذلك لأن الحكومة إنما

---

* يقصد به حضرة المفسر ﷺ والدَ والدتِه الكريمة واسمه حضرة مير ناصر نواب ﷺ. *(المترجم)*

تحيل المرء إلى التقاعد بعد أن تكون قد امتصت كل طاقته وقوته معتبرة إياه غير صالح لأي عمل.

ثم إن بعض رجال الأعمال يقولون بسبب عملهم سنذهب في السنة التالية، ثم لا يزالون يسوّفون كل سنة، مع أن أعمال الدنيا لا تنتهي أبدًا. فأيها الإنسان، إذا كان الله تعالى قد آتاك الفرصة فعَجِّلْ بالحج.

حينما ذهبت إلى مصر للدراسة كنت نويت الحج أيضًا. ولكن لم يكن بنيتي أن أحج في تلك السنة نفسها، بل كنت أنوي الحج عند العودة من مصر. ولما وصلت إلى بومباي لحِق بي جدي المرحوم الذي كان يريد الذهاب إلى الحج مباشرة، فقررت أنا الآخر أداء فريضة الحج مع جدي في تلك السنة نفسها. ولما بلغنا ميناء بورسعيد رأيت في الرؤيا أن المسيح الموعود عليه السلام جاء وقال لي: إذا كنت تنوي الحج فاركب السفينة غدًا لأنها هي السفينة الأخيرة. وكانت لا تزال أمامنا قبل الحج عشرة أو خمسة عشر يومًا، ولم تكن المسافة بعيدة، فكان الظن الغالب أن سفنًا عديدة أخرى ستخرج بالحجاج من مصر إلى جدة. وكان برفقتي السيد عبد الحي العرب، وكان يصر على أن نذهب بسفينة أخرى لا التي تُبحِر غدًا. ولما كان المسيح الموعود عليه السلام قد قال لي في الرؤيا إنك إن كنت تريد الحَج فاخرج على السفينة التي تذهب غدًا لأن السفن لن تذهب بعد ذلك، فصممت على الخروج على تلك السفينة، برغم أن بعض معارفنا المحليين أيضًا أشاروا علي قائلين: لا تزال هناك سفن عديدة ستذهب بالحجاج، فعليك أن تؤجل الخروج إلى الحج لتزور القاهرة والإسكندرية؛ إذ ليس من المناسب أن تعود بدون زيارة هذه الأماكن خاصة وقد جئت من مسافة بعيدة جدًّا. فقلت لهم إن المسيح الموعود عليه السلام قد أخبرني أنني إذا لم أخرج غدًا فهناك خطر فوات الحج، لذلك فلا بد أن أخرج غدًا. وبالفعل قد حصل خصام حاد بين شركة السفن وبين الحكومة، وكانت النتيجة أن السفينة التي خرجتُ عليها كانت هي السفينة الأخيرة، إذ لم ترسل الشركة بعدها أي سفينة أخرى بالحجاج في تلك السنة.

فكثير من الناس يرغبون في الحج، ولكنهم لا يحققون رغبتهم في وقتها فيُحرَمون حسنة كبيرة جدًّا. فكل من استطاع سبيلاً فليُسرِعْ لنيل شرف الحج إلى بيت الله الحرام.

بيد أنه لا فائدة في الحج إذا لم يتم بتقوى الله وخشيته. عندما قمت بالحج وجدت في طريقنا إلى منى تاجرًا شابًّا من منطقة سورت الهندية وهو يتغنى هناك بأبيات غزلية فاحشة جدًّا باللغة الأردية بدلاً من أن يذكر الله تعالى. وتصادف أن رجع هو بنفس السفينة التي كنت ركبتها عند عودتي من الحج. وذات يوم سنحت لي الفرصة فقلتُ لـــه: هلا أخبرتني لماذا جئتَ للحج؟ فقد رأيتك لا تذكر الله تعالى حتى عندما كنت تذهب إلى منى. فقال: الواقع أن الناس عندنا يشترون حاجاتهم من محلات التجار الحجاج أكثر من غيرهم. وهناك محل قريب من محلنا، فقام صاحبه بالحج وعلق على محله لافتة تقول إنه محل فلان الحاج، فبدأ زبائننا أيضًا يشترون من محله. فقال لي والدي: لم لا تذهب أنت للحج حتى نعلق على محلنا أيضًا مثل هذه اللافتة.

هل يمكن أن يثاب هذا الشخص على الحج يا ترى؟ كلا، بل سيجعله حجه من الآثمين حتمًا، بدلاً من أن يجلب لـــه أي ثواب. إذًا، فعلى المرء أن يأخذ في الحسبان في جميع أعماله أنه لن يعمل أي عمل، مهما كان صالحًا، إلا لابتغاء مرضاة الله تعالى وإلا فستدفعه تلك الحسنة نفسها إلى الهلاك والعذاب. لا شك أن الحج حسنة كبيرة، ولكن المرء إذا ذهب للحج ليزداد عزة بين الناس، أو ليُدعى حاجًا، أو إذا أدى الحج تقليدًا فحسب، فإنه سيرجع من الحج وقد فقد ما عنده من الإيمان. كان سيدنا المسيح الموعود – عليه الصلاة والسلام – يحكي لنا قصة بأن عجوزًا عمياء كانت جالسة على المحطة في أيام الشتاء تنتظر القطار. لم تكن عندها ثياب دافئة إلا رداء كانت تريد أن تلتفّ به عندما يتحرك القطار اتقاء الهواء البارد. وكانت قد وضعت الرداء بجنبها وكانت تتلمسه من حين لآخر. فمر بها شخص فكَّر أنها عمياء والظلام دامس، فلو سرق رداءها لن تفطن به هي ولا الناس. فاختلس رادءها. ولما كانت العجوز تتلمس الرداء من حين لآخر، علمت أن

رداءها قد سُرق. فأخذت تصرخ بأعلى صوتها: أيها الأخ الحاج، آتني ردائي. فإني امرأة فقيرة عمياء، وليس عندي ثوب آخر. فعاد المرء بسرعة وناولها الرداء وقال لها بلطف: كيف عرفتِ أنني حاج؟ قالت: يا بني، لا يقوم بمثل هذه الأعمال إلا الحجاج. إنني عمياء وفقيرة، ثم إنني وحيدة، والطقس بارد، ومن المستحيل أن يجرؤ سارق عادي على سرقة ردائي في مثل هذه الحالة. إنه عمل لا يقوم به إلا أحد الحجاج.

خلاصة القول أن الحج إنما ينفع صاحبه إذا قام بهذه الفريضة بقلب عامر بخشية الله وحبّه وإخلاصه. فإذا ذهب إلى الحج بقلب مخلص رجع بجبال من الإيمان، أما إذا خرج للحج بغير إخلاص فقَد ما عنده من الإيمان أيضًا.

والجدير بالذكر هنا أن الله تعالى قد وصف بيته ﴿البَيتِ الْعَتِيقِ﴾، وذلك إشارة إلى أن إبراهيم عليه السلام ليس هو الذي بنى بيت الله هذا، بل قد بُني هذا البيت قبله، إنما قام إبراهيم مع إسماعيل بتعميره ثانيةً متتبعًا آثاره السابقة. فإن إبراهيم عليه السلام عندما ترك هاجر وإسماعيل دعا بالكلمات التالية ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ﴾(إبراهيم:٣٨).. وفي هذا دليل على أن بيت الله كان قد بُني قبل زمن إبراهيم عليه السلام.

وقد أشار الله إلى هذا المعنى أيضًا في قوله تعالى ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ﴾(آل عمران:٩٧).. أي أن أول بيت بُني لنفع الناس روحانيًّا ولحماية إيمانهم إنما هو ذلك الذي بمكة. لقد جُمعت فيه للناس جميع البركات وكل سبب للفضل والرحمة.

لقد كان قوله تعالى ﴿وُضِعَ لِلنَّاسِ﴾ نبأً بأنه من خلال هذا البيت سيتم جمع الناس المتفرقين.. أي أن هذا البيت سيكون ذا صلة بدين عالمي وأنه سيكون سببًا في توحيد العالم كله. وبالفعل قد جمع الله تعالى بواسطة محمد رسول الله ﷺ شتى شعوب العالم على يد واحدة، وهكذا صارت الكعبة وسيلة لجمع الناس كلهم.

وكان إشعياء النبي أيضًا قد تنبأ بذلك حيث ورد: هكذا يقول الرب قدوسُ إسرائيل..... "أنا قد أنهضتُه بالنصر*، وكُلَّ طُرقِه أسهِّلُ؛ هو يبني مدينتي، ويُطلق سَبْيي لا بثمن ولا بهدية، قال رب الجنود: هكذا قال الرب: تَعَبُ مصر◈، وتجارةُ كُوش والسَّبَئيّون ذوو القامة إليكِ يعبُرون ولكِ يكونون. خلفَكِ يمشون. بالقيود يمرّون، ولكِ يسجدون. إليكِ يتضرعون قائلين: فيكِ وحدكِ اللهُ وليس آخرُ، ليس إله". (إشعياء ٤٥: ١٣-١٤)

إن أول ما تؤكده هذه النبوءة هو أنه سيبني مدينة لله تعالى. والواقع أن بلد الله الحرام هو المدينة الوحيدة في العالم كله التي يمكن أن تسمى مدينة الله حقًّا.

ثم تخبر النبوءة أن باني تلك المدينة.. أي من يقيم عظمتها في العالم.. سيفكّ رقاب سَبْيِي بلا أجرة. وبالفعل قد أطلق محمد رسول الله ﷺ سراح الأسرى عند فتح مكة بكلمة واحدة وبدون أي خراج أو غرامة حيث قال: "لا تثريب عليكم اليوم". وكذلك قال ﷺ للأسرى الروحانيين ﴿لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيهِ أَجْرًا﴾(الأنعام: ٩١).

ثم إن محمدًا رسول الله ﷺ هو الذي جاءته ثروة مصر وأرباح كوش وأناس طوال القامة من سبأ.

والمسيح عليه السلام هو الوحيد من بين الأنبياء السابقين الذي يدّعي أتباعه أنه ربما كان مصداقًا لهذه النبوءة، ولكن الواقع أنه لم توجد في المسيح عليه السلام أي علامة من العلامات المذكورة في هذه النبوءة. لا جرم أن مصر ظلت تحت سيطرة الرومان المسيحيين لفترة من الزمن، ولكن أرباح تجارة كوش لم تصلهم. لقد حاول الكُتّاب المسيحيون جاهدين أن يثبتوا أن الحبشة هي كوش (The Dictionary of the Bible p.122-123: "cush")، ولكن التحقيق الجديد يؤكد أن كوش المذكورة في سفر إشعياء إنما هي تلك المنطقة الواقعة بين إيلام وميديا. وإيلام هي ما بين

---

* ورد في النسخة الأردية مكان ذلك ما تعريبه: "أنا قد بعثتُه بالصدق". *(المترجم)*

◈ ورد في النسخة الأردية مكان ذلك ما تعريبه: "ثراءُ مصرَ". *(المترجم)*

شواطئ خليج فارس حتى دجلة، وأما ميديا فهي الأرض الواقعة جنوبي بحر قزوين (Encyclopedia Biblica V.1 p. 967: CUSH)، وأرباح تجارة هذه المناطق لم تصل إلى المسيحيين أبدًا.. بمعنى أن أهلها لم تعتنق المسيحية أبدًا. كذلك لم يذهب أصحاب القامات الطويلة من سبأ للسجود إلى الأماكن المقدسة لدى المسيحيين. ولو ذهب هؤلاء لعُدّوا مؤيِّدين للثالوث، في حين أن إشعياء النبي يخبر أن الذين تنطبق عليهم هذه النبوءة سيجتمعون في تلك المدينة لعبادة الإله الواحد، وسيدخلونها شـــاهدين أن لا إله إلا هو.

أما الإسلام فقد توافرت فيه هذه العلامات كلها، حيث إن الذين يؤمنون بأن الكعبة هي بيت الله يوجدون في مصر وفي بلاد اليمن التي تقع فيها "سبأ"، كما يوجدون في كُوش أيضًا. ويخرج كل سنة مئاتُ الآلاف من أهل هذه المناطق قاصدين تلك المدينة التي فيها بيت الله، فيدخلون ذلك البيت الذي يسمى بيت الله شاهدين: لبيك اللهم لبيك. لا شريك لك لبيك.

إذًا، فهذه النبوءة أيضًا تتضمن الإشارة إلى توجُّه الخلائق إلى مكة المكرمة، وقد تحققت هذه النبوءة على يد محمد رسول الله ﷺ. وتأكيدًا لهذه الصلة نفسها قد أمرنا الله بالتوجه إلى بيته خلال الصلاة.

قصارى القول، إن بيت الله مكان جد قديم، والتاريخ شاهد على ذلك. فقد كتب السير وليام موير في كتابه "حياة محمد": "لا مناص لنا من إرجاع المبادئ الهامة لدين مكة إلى زمن عتيق جدًّا. وبرغم أن المؤرخ اليوناني الشهير هيرودتس (Herodotus) لم يذكر الكعبة باسمها، إلا أنه يذكر من بين آلهة العرب الكبيرة إلهًا باسم "إلالات" – أي إله الآلهة؛ مما يدل على أنه كان يُعبَد في مكة كائنٌ كان إله الآلهة الكبيرة باعتقاد الناس." (The Life of MAHOMET: Introduction P. 14)

ويضيف فيقول: "وكتب المؤرخ دايودورس سكولس (Diodorus Siculus) أيضًا– وقد كان زمنه قبل التقويم المسيحي بخمسين سنة – أنه يوجد في الجزء المحاذي لشواطئ البحر الأحمر من الجزيرة العربية معبد يعظمه العرب تعظيمًا كبيرًا. (المرجع السابق)

ويقول أيضًا: متى بُني هذا المعبد، فهذا لا يتضح من التواريخ القديمة.. أي أنه معبد قديم لدرجة أن وجوده مذكور في التواريخ القديمة ولكن بداية بنائه غير معروفة. وهذا بالضبط هو مفهوم قوله تعالى ﴿البَيْتِ الْعَتِيقِ﴾، ولكن بكلمات أخرى.

ثم يكتب: يتضح من بعض التواريخ أن العمالقة أعادوا بناء هذا البيت، وظل عندهم لفترة من الزمن. وتخبرنا التوراة أن العمالقة هلكوا في زمن موسى (الخروج ١٧: ٨-١٦، والعدد ٢٤: ٢٠). وهذا يعني أن العمالقة ظلوا مسيطرين على هذا البيت قبل موسى عليه السلام بزمن طويل، وأنهم لم يكونوا من بُناته، بل كان قد بُني قبلهم أيضًا، وأنهم أعادوا بناءه إيمانًا بحرمته.

إذًا، فكون بيت الله ﴿البَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ حقيقةٌ ثابتة من الناحية التاريخية أيضًا.

وأرى لزامًا عليّ، بهذه المناسبة، ذكر كشفٍ لحضرة محيي الدين ابن عربي – رحمه الله – قد سجله في كتابه "الفتوحات المكية". يقول حضرته:

"ولقد أراني الحقُّ تعالى فيما يراه النائم وأنا طائف بالكعبة مع قوم من الناس لا أعرفهم بوجوههم، فأنشدونا بيتين ثبتُّ على البيت الواحد ومضى عني الآخر، فكان الذي ثبتُّ عليه من ذلك:

لقد طُفْنا كما طُفْتم سنينا بهذا البيت طُرًّا أجمعينا

... فتعجبتُ من ذلك. فقال لي واحد منهم وتَسمّى لي باسم لا أعرف ذلك الاسم، ثم قال لي: أنا من أجدادك. قلت لـــه: كم لك منذ متَّ؟ فقال لي: بضع وأربعون ألف سنة. فقلت: فما لآدم هذا القدر من السنين؟ فقال لي: عن أي آدم تقول؟ عن هذا الأقرب إليك أو عن غيره؟ فتذكرتُ حديثًا عن رسول الله ﷺ": إن الله خلَق مئة ألف آدم. فقلتُ: قد يكون ذلك الجد الذي نسبَني إليه من أولئك."
(الفتوحات المكية مجلد ٣ رقم الباب ٣٩٠ ص ٥٤٩)

إن هذا الكشف لحضرة محيي الدين ابن عربي – رحمه الله – أيضًا يؤكد أن بيت الله الحرام قد ظل مركزًا للعالم وسببًا لهداية الناس منذ عصر عتيق. كما يؤكد أيضًا أن الدنيا موجودة من مئات الآلاف من السنين، حيث لم يزل الناس يطوفون

بهذا البيت الحرام منذ آلاف السنين كما نطوف به اليوم. وهذه هي الحقيقة التي بينها القرآن الكريم في قوله ﴿الْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾، أي أنه البيت الذي ظل مهبطًا لأنوار الله وتجلياته منذ القديم، وسيظل سببًا لاتحاد العالم على مركز واحد إلى يوم القيامة.

ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ ۗ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴿٣٠﴾

شرح الكلمات:

الرِّجْس: القذَرُ؛ المأْثَمُ؛ العملُ المؤدّي إلى العذاب؛ العقابُ؛ الغضبُ (الأقرب).

الأوثان: جمع الوثَن أي الصنم (الأقرب).

الزُّور: الكذبُ؛ الشِّركُ بالله؛ الباطلُ (الأقرب).

التفسير: يخبرنا الله تعالى هنا أن الذي يعظّم أوامر الله ينال عند ربه درجات.. أي أن السبيل لنيل العزة عند الله تعالى إنما هو أن يعظّم المرء كل ما أمر الله تعالى بتعظيمه في ذلك الزمن.

ثم يبين تعالى أن من الأنعام ما قد أُحلّت لكم، أما التي تُقدَّم قربانًا من أجل الأصنام فهي محرمة عليكم. فعليكم باجتنابها وأيضًا باجتناب الكذب.. أي أن تقديم قرابين الأنعام على سبيل الشرك أيضًا نوع من الكذب. ثم قال تعالى ولا تشركوا، لأن الكعبة إنما أُسست لتوحيد شعوب العالم كلها وإقامة دين واحد، ولا يمكن جمع الشعوب كلها إلا على عقيدة التوحيد.

والحق أنه لمن المستحيل أن يتخلص العقل الإنساني من شتى أنواع التشويش والاضطراب بدون التوحيد. حيث تؤكد الوقائع أن منكري ذات البارئ تعالى ظلوا في دوامة التشويش والقلق دائمًا، ولم يتيسر لهم الأمن الحقيقي والسكينة

الحقيقية. لما ظهر الإنسان على مسرح العالم بدت لـــه الشمس كطبق من الذهب، وبدا لـــه القمر كقرص لامع، وتراءت لـــه النجوم بعضها بحجم الحبات وبعضها بحجم النبق وبعضها بحجم الجوز وبعضها بحجم التفاح. فظن أن الأعشاب والأشجار الموجودة على الأرض أكبر من الشمس والقمر والنجوم. لقد حيّره هذا القرص الصغير الذي يطلع على بُعد مئات الأميال حيث لا تصل إليه أيديه ولو صعد الجبال، فيضيء الدنيا كلها. ثم حيره طبق أبيض صغير آخر يظهر بالليل وينور العالم كله. كما استغرب من مئات الآلاف من النجوم المتلألئة المنتشرة في الجو وتبهر عينه بلمعانها وتقدم لبصره منظرًا خلابًا، ثم تغيب إذا طلع النهار. لقد كانت أمورًا مذهلة له، ولولا أن يد الله تعالى أخذته ودلّته على الصراط المستقيم منذ البداية لظل محتارًا مذهولاً. فنحن أيضًا نرى أن أهل البيت إذا سمعوا صوتًا مُريبًا خفيفًا أخذوا في البحث والتجسس. فيقول أحدهم: هناك سحلية، ويقول الآخر: هذا فأر، ويقول الثالث: هذا سارق. وهذا يعني أن صوتًا بسيطًا يجمح بخيال المرء من السحلية إلى السارق. ومن أجل ذلك قال المسيح عليه السلام أيضًا في الإنجيل أن المسيح الآتي سينـــزل كالسارق، حيث قال لحوارييه: "اسهَروا إذًا، لأنكم لا تعلمون في أية ساعة يأتي ربكم. واعلموا هذا أنه لو عرف ربُ البيت في أي هزيعٍ يأتي السارق لسهَر ولم يدَعْ بيتَه يُنقَبْ. لذلك كونوا أنتم أيضًا مستعدّين لأنه في ساعة لا تظنون يأتي ابن الإنسان" (متى ٢٤: ٤٢-٤٤). وهذه النبوءة تعني أنه عند مجيء المسيح ستنتاب الناس ريبةٌ وخوف، فيسمونه سارقًا، ولكنه يكون نبيًا صادقًا من عند الله تعالى.

فما أؤكد عليه هنا هو أنه ما دام الصوت البسيط أيضًا يزعج المرء لهذه الدرجة فكم بالحريّ أن يصاب الإنسان الأول بالدهشة والحيرة عند رؤية هذه المناظر الخلابة. ولكن بمجرد أن بلغ الإنسان مرحلة الشعور همس الله تعالى في أذنه وقال: إني لك، وأن كل ما تراه هو مما خلقتُه بيدي كما خلقتُك أنت، وأنك ستموت يومًا لتحضر عندي، وأن كل هذه الأشياء، سواء القريبة منها والبعيدة، إنما خلقتُها وسخرتها كلها لفائدتك وخدمتك. لا شك أن هذا الصوت قد نجاه من كثير من

المشاكل والمخاوف. بإمكاننا أن نتصور كم كانت مصائب الإنسان الأول.. أي آدم.. شديدةً وكثيرة لو لم يسمع هذا الصوت الرباني عند بلوغه مرحلة الشعور؟ فبمجرد طلوع الشمس كانت معاناته تبدأ حيث كان يتطلع إلى معرفة كنهها. وبمجرد أن يخيّم الليل أحاطت به مشكلة أخرى حيث كان تواقًا ليعرف حقيقة القمر. كما كان يريد أن يعرف ما هي علاقة هذه الأشياء به، وما إذا كانت قادرة على أن تنفعه أو تضره أو تحزنه أو تسره أم لا؟

إننا نرى أن الذين لم ينتفعوا من هذا الصوت الإلهي لا يزالون حتى اليوم في دوامة تلك الحيرة والتشويش. فجميع الشعوب التي تعبد الأصنام لا تزال في تلك المشاكل ذاتها. فمنهم من يظن أن بعض الأرواح تتحكم في الشمس والقمر، وأنها تبدي سرورها أو سخطها للناس، فإذا قام أحد من المشركين بعمل لم يأت بنتيجة طيبة ظن أن عمله هذا لم يُعجِب الأرواحَ المسيطرة على القمر مثلاً، وإذا قام أحد منهم بعمل أتى بنتيجة مرضية ظن أن عمله قد أعجب الروح المسيطرة على الشمس مثلاً. أما آدم، فكم كان يتمتع بالسكينة وبشاشة القلب، لأن الله تعالى كان أخبره أن هذه الأشياء كلها مسخرة له من قِبله تعالى وعاملة على خدمته، فلا داعي لأن يشق على نفسه بحثًا عما يجنّبه سخط الشمس أو القمر، أو عما يرضيهما. كان آدم الموحِّد الواصل بالله تعالى يعبده تعالى في مأمن من كل هذه الهموم والمخاوف. لو انحصر بحث المرء في أن الشمس شيء مادي، وعليه أن يعرف ما في أشعتها من منافع، فهو بحث علمي، ولا داعي للقلق بهذا الشأن؛ ولكنه إذا اعتبر هذه الأشياء آلهة ظنًا منه أن لها صلة بموته وحياته، وأن لها تأثيرًا على راحة أهله وأولاده، فلا بد أن يخالجه القلق ليل نهار، فيقول في نفسه لعل هذه الأشياء ستصيبني بضرر، فما السبيل لاسترضائها؟

وبالجملة، فإن حياة المشرك كلها تصبح صورة مجسّدة للقلق والحيرة والاضطراب النفسي دون أن يجد منفذًا من مصائبه. فيسجد لصنم تارة، ويخر أمام صنم آخر تارة أخرى. ويخاف سخط ذاك مرة ويحذر غضب هذا مرة أخرى. ويخاف النجوم حينًا، ويرتعد من الشمس والقمر حينًا آخر، ويُمتقع وجهه خوفًا

من الأصنام المنحوتة من الحجر التي لا حياة فيها. فلا يجد طمأنينة ولا سكينة في أي مرحلة من حياته. ولذلك قال الله تعالى هنا ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثَانِ﴾.. أي إذا كنتم تريدون النجاة من القلاقل والاضطرابات النفسية فتجنَّبوا شرك عبادة الأوثان، وكونوا موحِّدين كاملين، عندها لن يصيبكم قلق ولا اضطراب، وسترون أن الدنيا كلها مسخرة لخدمتكم.

ثم يقول الله تعالى إن وصيتنا الثانية هي ﴿وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾، لأن الكذب أيضًا مرض مدمر للروحانية. علمًا أن الشرك في حد ذاته كذب أكبر. ذلك لأن المشرك ينسب إلى هذه الأشياء طاقات وقدرات لم يهبها الله إياها ولا هو أهلٌ لها، وهكذا فإن المشرك يتهافت على نجاسة الزور. والحق أن الصدق والسداد هو من أبرز علامات جماعات الأنبياء. وهذه العلامة ذات أهمية قصوى، ولكن المؤسف أن كثيرًا من الناس لا يقدرون الصدق والسداد حق قدره. وقد اشتد هذا المرض في العصر الحاضر خاصة، لأنه زمن المداهنة والنفاق، حيث يرى الناس اليوم أن التحضر يعني أن يراعي المتكلم مشاعر المخاطَب لدرجة بحيث لا يتردد في إخفاء الحق إذا اقتضى الأمر. ولكن على المرء محاربة هذه السيئة بكل ما أوتي من قوة ولا يألو جهدًا في القضاء عليها، على الرغم من هذا التيار المعاصر، ذلك لأن الكاذب يحاول خداع الناس، والخداع يضر القوم. إذًا، فالكاذب ليس مجرمًا أخلاقيًّا فحسب، بل إنه عدو للإنسانية ويهلك الناس. والقضاء على هذا العيب واجب على كل مسلم صادق مخلص. قال النبي ﷺ إن من علامات المنافق أنه إذا حدّث كذَب (البخاري: كتاب الإيمان، باب علامة المنافق). وقال الله تعالى في القرآن الكريم ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾(النساء:١٤٦). وهذا يعني أن الله تعالى سيعامل المنافقين بأسوأ مما يعامل به الكافرين، ذلك لأن الكافر لا يضر إلا نفسه، أما المنافق فيتضرر به المسلمون أيضًا. إن الأمة التي لا تقدر على محو الكذب من بين أفرادها، ومع ذلك تظن أنها ستحرز الرقي والرفعة، فظنها باطل. ومثلها كمثل طفل يظن أنه سيصل إلى القمر أو الكواكب الأخرى. فكما أن أمنية الطفل للوصول إلى القمر أو النجوم الأخرى لا تتحقق، كذلك من المستحيل أن تفلح أمة

يوجد فيها الكذب. لقد كان النبي ﷺ صادق القول لدرجة أن أعداءه أيضًا اعترفوا بأنه يتبوّأ مرتبة عالية من الصدق والسداد. لما نـــزل عليه الوحي بأن يدعو الناس إلى الهدى صعد جبل الصفا وأخذ ينادي أهل مكة. فلما حضر الجميع قال: أرأيتُكم لو أخبرتُكم أن خيلاً بالوادي تريد أن تغير عليكم أكنتم مُصدَّقِيَّ؟ قالوا؟ نعم، ما جرّبْنا عليك إلا صدقًا. (البخاري: كتاب التفسير، سورة الشعراء، وتفسير روح المعاني: سورة المسد). ذلك برغم أنه كان من المستحيل أن يكون وراء ذلك الجبل جيش كبير ولا يشعروا بوجوده.

كذلك لما دعا قيصر الرومي أبا سفيان في بلاطه وسأله عن محمد رسول الله ﷺ قال: هل نكث محمد وأصحابه عهدًا عقدوه معكم؟ قال أبو سفيان: لم نر منه غدرًا من قبل، إلا أننا الآن في معاهدة صلح معه ولا ندري ما هو فاعل فيها؟ فقال لـــه قيصر: دَعْك من الحديث عن المستقبل. ما دام محمد (ﷺ) لم يغدر بكم في الماضي، فهو دليل على أنه لن يغدر بكم في المستقبل أيضًا (البخاري: باب كيف كان بدء الوحي).

فترى أنه حتى ألد أعداء النبي ﷺ لم يقدروا قط أن يتهموه بالكذب في قوله أو الغدر في عهده وهم في حرب معه. وهذا ما جعل أهلَ كل بلد دخل فيه المسلمون مشغوفين بحبهم متأثرين بأخلاقهم الفاضلة حتى أكرموهم أكثر مما أكرموا زعماء قومهم ودينهم، ودعوا لسلامتهم. ورد في التاريخ أن المسلمين لما فتحوا مدينة حمص التي كانت تحت حكم الروم، أحسوا بعد فترة بخطر الهجوم من قبل العدو ثانية، فارتأوا إخلاء حمص. فدعوا أهلها النصارى وقالوا لهم: لقد أخذنا منكم الجزية شريطة أن نقوم بحماية أنفسكم وأموالكم، ولكنا قد أصبحنا في موقف حساس حرج، ولا نقدر على حمايتكم، فخذوا ما أخذنا منكم من الجزية. فردّوا للنصارى أموالاً بلغت الآلاف. فكان لهذا النموذج الحسن تأثير عميق في قلوب النصارى لدرجة أنه لما غادر الجيش المسلم مدينتهم خرجوا معه باكين داعين الله تعالى أن يعود بالمسلمين إليهم ثانية. كما أن اليهود أيضًا قالوا للمسلمين بكل

حماس حالفين بالتوراة: لن يدخل قيصر مدينة حمص ما دمنا أحياء (فتوح البلدان للبلاذري: أمرُ حمص ويوم اليرموك ص ١٣٦-١٣٧ و١٤٣)

إذًا، فالصدق أمر يستحيل بدونه أن يكون لقوم رعب وهيبة. إن الذين يتحلون بالصدق والسداد يتسببون في انتشار صيت قومهم في العالم، أما الذين لا يقدمون هذا النموذج الحسن فإنهم في الواقع يقضون على قومهم.

حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيۡرَ مُشۡرِكِينَ بِهِۦۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخۡطَفُهُ ٱلطَّيۡرُ أَوۡ تَهۡوِي بِهِ ٱلرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٖ ﴿٣١﴾

شرح الكلمات:

سحيق: السحيق: المكان البعيد (الأقرب).

التفسير: أي أن مَثل الشرك، إزاء التوحيد، كمثل أن يلقي المرء نفسه من مكان عال جدًّا فيتمزق، فتفرّق الريح أشلاءه بعيدًا. ذلك لأن المشرك يختار لنفسه عدة أسياد، ولكل سيد منهم حق على لحمه.

وليكن معلومًا أن الشرك ليس أمرًا بسيطًا كما يُظن عادة، بل هو قضية دقيقة معقدة للغاية، ولذلك نجد معظم الأمم التي تخالف الشرك في الظاهر تقع فيه عَمليًّا؛ وليس ذلك إلا لأنهم فشلوا في معرفة حقيقة الشرك. والحق أنه ليس للشرك تعريف واحد محدد، بل يمكن استيعاب هذا المرض من زوايا مختلفة. وسيبقى الشرك قضية معقدة لا تقبل الحل طالما يسعون لتحديده في تعريف واحد. وينقسم الشرك، عندي، إلى الأقسام التالية:

الأول: الاعتقاد بوجود كائنات عديدة ذوات قوى متساوية، كل واحد منها يحكم العالم ويسوده. وهذا ما يسمى الشرك في ذات البارئ تعالى.

والثاني: الاعتقاد بأن في الكون كائنات عديدة تدير العالم، وأنها تتقاسم فيما بينها شتى الصفات والكمالات، فبعضها تتمتع بصفة، وغيرها بصفة أخرى. وهذا النوع أيضًا يندرج في الشرك في ذات البارئ تعالى.

الثالث: تعبّر مختلف الأمم عن التواضع والتذلل بأعمال شتى، وإن القيام بأي عمل دالّ على منتهى التذلل أمام غير الله تعالى شركٌ. فالسجود، مثلاً، تعبير عن غاية التعظيم والتذلل، فلا يجوز السجود لغير الله تعالى. بيد أن هناك حركات بدنية أخرى تقوم بها شعوب شتى تعبيرًا عن منتهى التذل والتواضع؛ مثل ربط الأيدي بعضها على بعض عند الوقوف أمام الآخر، أو الركوع أمامه وما إلى ذلك، وقد جمع الله تعالى هذه الحركات في الصلاة وجعلها جزءًا منها، فلا يجوز الآن القيام بهذه الحركات لغير الله تعالى.

الرابع: ظن المرء أن أسبابه المادية ستسدّ حاجاته كلها بحيث ينصرف تفكيره عن قدرة الله وتصرّفه في سد حاجاته، حتى يعتمد على الأسباب الظاهرة فحسب. هذا أيضًا نوع من الشرك. أما إذا فكر أن الله تعالى قد أودع هذه الأسبابَ قوى وتأثيرات شتى، وستأتي بالنتائج المرجوة بأمر الله تعالى، فهذا ليس من الشرك في شيء.

الخامس: إشراك غير الله في صفاته التي ما أعطاها للعباد بل خص نفسه بها كإحياء الموتى وخلق الأشياء وكونه تعالى أزليًّا وغير فان. فإلغاء خصوصية الله في هذه الأمور وإشراك غيره فيها شركٌ، حتى وإنْ ظن أحد أن الله تعالى نفسه وبإرادته ومشيئته قد منح فلانًا هذه الصفات الخاصة به أو بعضًا منها.

السادس: غضُّ المرء الطرف عما خلقه الله تعالى من أسباب، فيعتقد أن فلانًا من الناس أو الأشياء قد أنجز عملاً كذا بطاقته الذاتية الخاصة به بدون أن يستعمل ما خلق الله تعالى من أسباب لإنجاز ذلك العمل. فمثلاً قد خلق الله تعالى النار للإحراق، فلو ظن أحد أن فلانًا قد أشعل النار بطاقته الذاتية بدون اللجوء إلى الأسباب والقوانين الطبيعية التي خلقها الله تعالى لذلك، فهذا شرك. غير أن

المسمرية أو التنويم المغناطيسي (Mesmerism) وغيرها من الممارسات لا تندرج تحت هذا الباب لأنها مشمولة في القوانين الطبيعية التي خلقها الله تعالى، وليست من الكمالات الذاتية لأحد.

السابع: الاعتقاد أن الله تعالى يحبّ عبدًا من عباده لدرجة أنه يقبل منه كل ما يقوله، لأن هذا الاعتقاد يعني أن ذلك العبد يتمتع بقوى إلهية.

الثامن: اعتقاد المرء أن كائنًا ما سينجز له عملاً معينًا، مع أن الله تعالى لم يعط ذلك الكائن في قانونه الطبيعي أي قدرة على إنجاز ذلك العمل. فمثلاً، إن الله تعالى هو "السميع".. أي أنه يستمع لدعاء عباده بشكل كامل ويسدّ حاجاتهم.. بمعنى أنه لا يحول دون ذلك الوقتُ ولا المسافة. ولكن أحدًا لو أخذ يزور قبور الموتى ويسألهم حاجاته، بدلاً من أن يدعو الله تعالى لذلك، فإنه يشرك بالله تعالى، إذ أشرك الموتى في صفة الله "السميع"؛ مع أن القرآن الكريم يرفض ذلك صراحة في قول الله تعالى ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لاَ يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ۝ أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾(النحل:٢١-٢٢).. أي أن الآلهة الباطلة التي يدعوها الناس من دون الله تعالى لتنصرهم، لا تقدر على أن تخلق شيئًا، بل إنها نفسها مخلوقة وكلها أموات غير أحياء، ولا تعلم متى تُبعث ثانية.

علمًا أن الله تعالى قد فند هنا زعم المشركين أن آلهتهم أيضًا تعلم بذات الصدور، معلنًا أن ادعاءهم هذا باطل كلية، لأن الخالق يكون على علم بما في مخلوقه من طاقات وحاجات، ولكن الذين يدعونهم مخلوقون بأنفسهم، فأنّى لهم أن يعلموا ما في صدور من يدعونهم. ثم إنهم أموات غير أحياء، فأنى لهم أن ينصروهم. إنهم لا يعرفون حتى وقت بعثتهم ثانية.. أي أن مصيرهم هو الآخر ليس في أيديهم بل في أيدي غيرهم. فالذي يزور قبر أحد الموتى، والحال هذه، ويسأله حاجته، فإنه يرتكب الشرك حتمًا. كذلك من الشرك أن يَعرِض أحد حاجاته على الأنهار أو البحار أو الشمس أو القمر أو غيرها، ويدعوها لنصرته.

التاسع: القيام – من دون ضرورة طبيعية – بأعمال هي بقية من آثار التقاليد الوثنية وإن لم تكن تشبه الأعمال الوثنية في هذه الأيام، كأن يضع المرء على ضريح مصباحًا مضيئًا، سواء طلب من صاحب القبر حاجته أم لم يطلبها، أو اعتقده إلهًا أم لم يعتقد. إن هذا العمل أيضًا يُعتبر شركًا ووثنية لأنه بقية من الأعمال الوثنية في الماضي. كان القدامى يعتقدون أن الموتى يرجعون إلى قبورهم ويساعدون من يعظّم قبورهم، وينجزون له الأعمال، ومن أجل ذلك كان الناس يضعون على قبور الموتى المصابيح أو الأزهار وغيرها. وبما أن إحياء تلك الأعمال الوثنية يماثل تأييدًا للشرك فقد اعتُبر هذا العمل أيضًا من الشرك والوثنية.

كذلك يندرج في الشرك أيضًا تعليق الحبال والخِرق على الأشجار أو تغليف الأضرحة بالثياب وممارسة أعمال السحر والشعوذة وما شابه ذلك.

أما قولي "بدون ضرورة طبيعية"، فأقصد به أن أحدًا لو كان مسافرًا وأتاه الليل، فاضطر للمبيت في مقبرة، فليس عليه أن يبيت هناك في الظلام، بل لا بأس أن يشعل سراجًا أو مصباحًا ليبيت في الضوء.

العاشر: والنوع العاشر من الشرك هو أن يكنّ المرء تجاه أحد من البشر مشاعر الحب والتعظيم والخوف والرجاء أكثر مما يكنّه لله تعالى أو مِثلَه، وإن لم يقم بأي عمل وثني آخر تجاهه.

إنما الموحد الكامل من يتجنب أنواع الشرك هذه كلها، ويؤمن بوحدانية الله تعالى بصدق القلب. والحق أن الشرك يجعل رؤية المرء ضيقةً جدًّا، ويثبّط همته، ويجعل غايته محدودة جدًّا. يظن المشرك أن وصاله إلى الله تعالى مباشرة مستحيل، وأنه بحاجة إلى وسيط، مع أن الله تعالى لم يجعل بينه وبين عباده أي وسيط، بل ترك أبواب قربه مفتوحة للناس جميعًا، ليدخلها من شاء. لا شك أنه من المستحيل على ملك من ملوك الدنيا أن يكون على صلة مع كل فرد من رعاياه، ولكن قدرة الله لا تعرف الحدود، فهو قادر كل القدرة على أن يكون على صلة مباشرة بالجميع ويمتّعهم بقربه ﷻ.